قد اتبعوا هذه الخطة الشنعآء مخالفين ناموس الارتقآء لان كل امةٍ لم يتخذ افرادها وحكومتها العدل شعاراً والمساواة قانوناً والحرية اماماً يتعذر بل يستحيل عليها الثبات في معترك الوجود وتقفل في وجوه ذريتها ابواب السعادة والمنعة والاستقلال وتتهافت في مهاوي الذلة والضعف الى ان تُكتَب على اعلامها آية الزوال والاضمحلال (ستأتي البقية)

الدماغ والعقل

(تتمة ما سبق)

هذا مُجمَل ما ذكرهُ اصحاب هذا البحث ولعلّ بعضهُ لا يخلو من صحة لكن لا على الوجه الذي قرروهُ من ان كل واحدةٍ من تلك القوى لها عضوٌ قائمٌ بنفسهِ مستقلٌ بعملهِ والاّ لزم تجزئة الدماغ الى عدة ادمغة وبالتالي تجزئة العقل الى عدة عقول لكلّ منها حافظتهُ وحاكمتهُ ومخيّلتهُ وهلمّ جرًّا . واقلّ ما يلزم عن ذلك تعدُّد الذات التي يعبّر عنها كل واحد بقولهِ « أنا » بحيث يصبح هناك عدة ذواتٍ لا ذاتٌ واحدة وهو منقوضٌ بشهادة الوجدان لان كل احدٍ يشعر من نفسهِ بهذه الوحدة وان جميع ما

الفكر والارادة ما جعل عيش المصريين هنيئاً وزمانهم مجيداً وعرج بهم الى ذروة التمدن والعز والشهرة . بيد انهم قد افرطوا وتطرفوا في التسامح حتى اصبح الرجل منهم يتزوج بشقيقته كما فعل كثيرون من البطالسة الذين تملكوا مصر واخذوا هذه السنة الذميمة عن اهلها . نعم ان قدمآء الكلدانيين وغيرهم كانوا يتساهلون بزواج الاخت لأمٍّ دون ابٍ وبالعكس كما وقع لابرهيم جدّ العبرانيين معسارة ولكن لم يسمع انهم تزوجوا بشقائقهم من الام والاب كما فعل المصريون

يصدر عنهُ من الافعال انما يصدر عن عاملٍ واحد لا تجزُّؤ فيهِ ولا تعدُّد فالذي يحبّ فيهِ مثلاً هو الذي يبغض والذي يدرك الالوان هو الذي يدرك الابعاد والاعداد والذي يتفكر ويتعجب هو الذي يتذكر الهيئات والحوادث وهلمَّ جرًّا

وفضلاً عن ذلك فان ما وصفوهُ من تقسيم الدماغ لا حقيقة لهُ في نفس الامر اذ لا يُرَى لشيءٍ منهُ اثرٌ في التشريح كما ان تخصيصهم لكل قوةٍ من قوى النفس قسماً معلوماً من تلك الاقسام لا دليل عليهِ ولا سبيل الى اثباتهِ . بلى لا يُنكَر ان بعض المتأخرين من علمآء التشريح توصلوا الى معرفة شيءٍ من وظائف الاقسام الطبيعية للدماغ واشاروا الى مواضعها منهُ على ما اثبتهُ فرِتْش وهِتْسِج وفَرّيآي وغيرهم لكن ذلك لا يتعدى مراكز الحس والحركة واما ما ورآء ذلك من المدارك العقلية ومعرفة مكان كلٍّ منها فما لا تزال مباحثهم قاصرةً عن الوصول اليهِ لدخولهِ في حيّز ما ورآء الطبيعة

لكن على كل حال لا سبيل للريب في ان الدماغ هو محلّ القوى العاقلة وان افعالها انما تتم بواسطة الدماغ لتنزُّلهِ منها منزلة الآلة من العامل ولذلك تكون سلامتها متوقفةً على سلامتهِ فضلاً عن ان مبلغها من الكمال يقاس بمبلغ حجمهِ على ما تقرر في صدر هذا المقال . وحينئذٍ فلا يبعد ان تستخدم النفس لكل واحدةٍ من قواها جزأً مخصوصاً من الدماغ على وجهٍ لا نعلم كيفيتهُ بدليل الاختلاف في تغلُّب بعض تلك القوى على بعض بين شخصٍ وآخر وهو السبب في تباين العقول والاهوآء بين آحاد البشر

فترى بعض الناس مطبوعاً على الشعر مثلاً وغيرهُ مفطوراً على الرياضيات او على الميل الى التجارة والكسب او التقشف والزهد او طلب الرفعة والسيادة الى غير ذلك من الاطوار والملكات لان هذه كلها من المميزات الشخصية التابعة للاستعداد الفطري لا من خصائص النفس المدبّرة . بل قد تجد هذا الاختلاف بعينهِ في الشخص الواحد بين طورٍ وآخر من اطوار الحياة فان الانسان في زمن الحداثة الاولى اشدّ ما يظهر فيهِ قوة الحفظ والتصوُّر والنطق فاذا بلغ أَشُدَّهُ مال الى التعقُّل والتدبُّر ومعرفة قدر الذات ونمت فيهِ قوّة القياس والاستنتاج واذا ادركتهُ الشيخوخة ضعفت فيهِ الحافظة وقوّتا التصوُّر والحكم وتنبهت قوة الذاكرة[1] ولذلك ترى الشيوخ مولعين بذكر ايامهم الاولى وحكاية ما مرَّ بهم في عصر الشباب

واظهر من ذلك انهُ قد يصاب الدماغ بآفةٍ او مرض فيتعطل فيهِ بعض القوى دون بعض واكثر ما يحدث هذا التعطُّل في قوة الذاكرة . والروايات في ذلك عديدة منها فيما يتعلق بغرضنا ما ذكرهُ بعضهم من ان قسّيساً من اكابر العلمآء اصيب بمرضٍ شديد فلما افاق منهُ لم يجد في محفوظهِ شيئاً من كل ما تلقّاهُ من العلوم فاخذ يتعلم ثانيةً مبتدئاً من الحروف الهجآئية حتى اذا انتهى الى درس قواعد اللاتينية شعر بألمٍ شديد في رأسهِ وعلى اثر ذلك اشرقت عليهِ معارفهُ الاولى وعادت اليهِ ذاكرتهُ كما كانت .

---

(١) الفرق بين الحافظة والذاكرة ان الاولى تحفظ ما تدركهُ القوة الوهمية من المعاني والثانية تستحضر تلك المعاني وتذكرها ولذلك قالوا كأن الحافظة سكونٌ ما والذاكرة حركةٌ ما .

ورُوِي عن آخر انهُ عرضت لهُ علةٌ دماغية فلما شُفي منها نسي كل اسمآء الذوات من الاجناس والاعلام فربما سمى الشيء باسم غيرهِ او تذرع الى الابانة عنهُ بذكر شيءٍ من صفاتهِ كأن يقول هذا الطويل او هذا القصير وما أشبه ذلك

وهناك امرٌ آخر اعمّ مما ذكر وهو ضربٌ من ضروب الاختلاط يُعرَف بالجنون الخاص تختلّ فيهِ احوال العقل في معنى من المعاني ويكون فيما سوى ذلك صحيحاً . فمن هذا النوع ما يسمى بجنون العَظَمة وهو خللٌ في الوجدان يشتدّ ولوع صاحبهِ بالفخر والأُبَّهة والالقاب المجيدة وعلوّ الكعب في السيادة او العلم او الغنى فيتخيّل انهُ فيلسوفٌ كبير او قائد منتصر او ملك او نبيّ او الله نفسهُ . ومنهُ جنون الانتحار وهو حال شبيه بالحلم فيسمع صاحبهُ كأن قائلاً يأمرهُ بان يقتل نفسهُ او يتصور ان لهُ اعداءً يطلبون قتلهُ ومن ذلك ما حكي عن الشيخ ابي نصر اسمعيل بن حمّاد الجوهري صاحب الصحاح من انهُ بعد ما اصيب بالوسوسة في اواخر حياتهِ كان يوماً جالساً في منزلهِ فخيّل لهُ كأنَّ رجلين وقفا ببابهِ فقال احدهما للآخر هذا الشيخ ابو نصر الجوهري وهو شيخٌ كبير قد جمع اموالاً كثيرة فهلمَّ نقتلهُ ونستولِ على امواله . فقال الآخر ان سمع مني فانا ارى لهُ ان يقتل نفسهُ بيدهِ ولا يدع سبيلاً لامثالنا ان تمتدّ ايديهم اليهِ . فقال الشيخ اصبت والله وعمد الى سكين بجانبهِ فوضعها على عنقهِ وحزّ فلما سال الدم انتبه فلم يرَ احداً . ومنهُ جنون السرقة وهو يظهر غالباً على هيئة الدناءة والخسة في ذوي المقامات العاليــة وارباب الحرمة والسيادة

فيسرقون اشيآء يقع عليها اختيارهم مما لا حاجة لهم بهِ. قيل ويكثر عروض هذا النوع للنسآء الحبالى وهو من غريب الاسرار. فمن ذلك ما رُوِي عن رجلٍ من مشاهير اهل السياسة كان يتناول طعام الظهر في فنادق المدينة فكان كلما دخل فندقاً يسرق ما وصلت اليهِ يدهُ من الآنية الفضية ويدفعهُ الى خادمهِ ليحملهُ الى بيتهِ . وذكر ان رجلاً من المصابين بهذه العلة كان يسرق مراكن الغسَّالات فكان يجمعها عندهُ وهو لا يدري لهـا منفعةً . واغرب منهُ ان رجلاً مشهوداً لهُ بالتقى كان من عادتهِ سرقة التوراة فأُغضي عنهُ مراراً ولما تمادى على ذلك وُضع تحت المحاكمة وشُهِّر . ويقرب من هذا جنون الإسفاف وهو التهالك على جمع الفضلات الدنيئة والأَسقاط التي لا قيمة لها كأعقاب الشمع وعُلَب الثقاب الفارغة ومقابض السكاكين وقطع الزجاج والمسامير واشباه ذلك وقد عرفنا من اولئك رجلاً من كبار اصحاب البيوتات وُجد عندهُ بعد موتهِ عدة زنابيل ملأى بامثال هذه الخسائس

وهناك ادلةٌ اخرى منها الذهول وهو ان ينصرف العقل الى قوةٍ من القوى كالمفكرة مثلاً فيتوقف سائر القوى عن العمل بحيث انك لو كلمتهُ في تلك الحال لا يسمع الكلام او يسمع اللفظ ولا يفهم المعنى وربما لمستهُ او وكزتهُ فلا يشعر او عرضت عليهِ شيئاً يحبهُ او يكرههُ فلا يميزهُ الى غير ذلك

ومنها ما يعرض للانسان في حالة النوم فانهُ ما دام مستيقظاً تكون جميع قوى العقل متوفرة فيهِ يوجهها انَّى شآء فاذا نام بطل معظم تلك

القوى لكن تبقى الحافظة والمتخيلة والذاكرة وهي التي ينشأ عنها ما يتمثل لهُ من الاحلام

فترى في كل ذلك ان قُوَى العقل تقوى تارةً وتضعف اخرى ويعرض لبعضها الاختلال مع بقاء غيرهِ سليماً وقد يبطل بعضها بتاتاً والاظهر ان كل ذلك ناشئٌ عن حالةٍ تعرض لآلات الادراك لا للقوى المدركة انفسها بدليل عود تلك القوى الى ما كانت عليهِ عند زوال الآفة المرضية او غيرها . واما معرفة اماكن تلك الآلات وتعيين كلٍّ منها بحدودهِ وهل تتميز الواحدة عن الاخرى بحيزها او بطبيعة جوهرها ونوع تركيبها فكل ذلك مما حُجِب العقل عن ادراكهِ وان كان من اخصّ خصائصهِ واقرب الموجودات اليهِ . قال استينُون وهو من اشهر الباحثين في امر القوى العقلية واعجب ما في الامر ان العقل البشري الذي وصل في بحثهِ الى اقاصي الفضاء يجهل الآلات التي يستعين بها في ذلك البحث فكانهُ متى أَوَى الى منزلهِ الخاص تجرّد من جميع قواهُ

الرسالتان السينية والشينية

هما الرسالتان اللتان وعدنا بنشرهما في الجزء السابق وقد انتسخناهما من مكتبة الامة في باريز سنة ١٨٩٥ عن نسخةٍ قديمة العهد سقيمة الخط لا تخلو روايتها من خطأ ثم ظفرنا بنسخةٍ للنظم الذي فيهما في مكتبة حضرة السريّ اللوذعيّ عزتلو احمد بك تيمور وهي لا تخلو من غلط النسخ ايضاً فاستأذناهُ في مقابلة نسختنا عليها واستعنا بنظرهِ في اختيار الاشبه من النسختين مع تدبر ما بقي مما لا نسخة لهُ عندهُ فجاءت هذه النسخة موافقةً للصحة فيما نظن